تمهيد

﴿ حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية ﴾

— تابعة لحالة الآداب في الامة —

اني ادعو كل محب للحقيقة ان يبحث معي في حالة النساء المصريات وانا على يقين من انه يصل وحده الى النتيجة التي وصلت اليها وهي ضرورة الاصلاح فيها . هذه الحقيقة التي انشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها اقلبها وامتحنها واحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلني بورودها وتنبهني الى مزاياها وتذكرني بالحاجة اليها فرأيت ان لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر

ومن احكم الاشياء التي يدور عليها تقدم النوع الانساني

ويؤكد حسن مستقبله هـذه القوة الغريبة التي تدفع الانسان الى نشر كل فكرة علمية او أدبية متى وصلت الى غاية نموها الطبيعي في عقله واعتقد انها تساعد على تقدم ابناء جنسه ولو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها. تلك قوة يدرك سلطانها من وجد في نفسه شيئاً منها . يشعر انه ان لم يسابقها الى ما تندفع اليه ولم يستنجد بقية قواه لمعاونتها على استكمال ما تهيأت له غالبته ان غالبها وقاومته ان قاومها وقهرته ان عمل في قهرها وظهرت في غير ما يحب من مظاهرها كأنها الغاز المحبوس لا يكتم بالضغط ولكن الضغط يحدث فيه فرقعة قد تأتى على هلاك ما حواه

والبراهين على ذلك كثيرة في الماضي فان تاريخ الأمم مملوء بالمناقشات والجدل والجلاد والحروب التي قامت في سبيل استعلاء فكر على فكر ومذهب على مذهب وكانت الغلبة تارة للحق وأخرى للباطل وكانت الأمم الاسلامية على هذه الحال في القرون الأولى والوسطى . ولم يزل الأمر على ذلك أو يزيد في البلاد الغربية التي يصح ان يقال فيها ان حياتها جهاد مستمر بين الحق والباطل والخطأ والصواب : جهاد داخلي بين

افراد الامة في جميع فروع المعارف والفنون والصنائع . وجهاد خارجي بين الأمم بعضها مع بعض . خصوصاً في هذا القرن الذي الغت فيه الاختراعات الحديثة المسافات والابعاد وهدمت الحدود الفاصلة والاسوار المانعة حتى ان الاشخاص الذين ساحوا في جميع انحاء الارض يعدون بالألوف . واذا ألف رجل من مشاهيرهم كتابا ترجم في اثناء طبعه وظهر في خمس أو ست لغات في آن واحد !

ولم يركن الى حب السكينة الا اقوام على شاكلتنا . فقد اهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالارض البائرة التي لا يصلح فيها نبات . وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعده أهل الوقت حديثاً غير مألوف سواءً كان من السنن الصالحة الأولى أو قضت به المصالح في هذه الازمنة

وكثيراً ما يكتفي السكول وضعيف القوة في الجدل بان يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد ان يدفعه فيقول تلك بدعة فى الاسلام . وما يرمى بهذه الكلمة الا حب التخلص من مشقة الفهم أو الخروج من عناء العمل فى البحث أو الاجراء : كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم واقالهم

من احكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية

سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة . فاقول نعم اتيت ببدعة ولكنها ليست فى الاسلام . بل فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها

لم يعتقد المسلم ان عوائده لا تتغير ولا تتبدل وانه يلزمه ان يحافظ عليها الى الابد ؟ ولم يجر على هذا الاعتقاد فى عمله مع انه هو وعوائده جزؤ من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل في كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله فى خلقه اذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ أليست العادة عبارة عن اصطلاح أمة على سلوك طريق خاصة فى معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان ؟ من ذا الذي يمكنه ان يتصور ان العوائد لا تتغير بعد ان يعلم انها ثمرة من ثمرات عقل الانسان وان عقل الانسان يختلف باختلاف الاماكن والازمان ؟ المسلمون منتشرون فى اطراف الارض . فهل هم أنفسهم متحدون في العادات وطرق المعاش ؟ من ذا الذي يمكنه ان يدعي ان

ما يستحسنه عقل السودانى يستحسنه عقل التركي او الصيني أو الهندي . او ان عادة من عادات البدوي توافق أهل الحضر أو يزعم ان عوائد أمة من الامم مهما كانت بقيت جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير ؟

والحقيقة ان لكل أمة في كل مدة من الزمن عوائد وآداباً خاصة بها موافقة لحالتها العقلية . وان تلك العوائد والآداب تتغير دائماً تغيراً غير محسوس تحت سلطان الاقليم والوراثة والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الادبية والعقائد الدينيه والنظامات السياسية وغير ذلك . وان كل حركة من من حركات العقل نحو التقدم يتبعها حتماً أثر يناسبها فى العادات والآداب . وعلى ذلك يلزم ان يكون بين عوائد السودانى والتركى مثلا من الاختلاف بقدر ما يوجد بين مرتبتهما في العقل . وهو الامر المشهور الذي لاريبة فيه .

وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصري والاوروباوي

ولا يمكن ان يتصور أحد ان العادات التى هي عبارة عن طريق سلوك الانسان فى نفسه ومع عائلته ومواطنيه وابناء جنسه تكون فى أمة جاهلة أو متوحشة مثل ما تكون فى

أمة متمدنة لان سلوك كل فرد منها انما يكون على ما يناسب مداركه ودرجة تربيته

ولهذا الارتباط التام بين عادات كل أمة ومنزلتها من المعارف والمدنية نرى ان سلطان العادة انفذ حكماً فيها من كل سلطان وهي أشد شؤونها لصوقاً بها وابعدها عن التغيير ولا حول للامة عن طاعتها الا اذا تحولت نفوس الامة وارتفعت أو انحطت عن درجتها في العقل ولهذا نرى انها تتغلب دائماً على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على الشرائع . ويؤيد ذلك مانشاهده كل يوم في بلادنا من ان القوانين واللوائح التي توضع لاصلاح حال الامة تنقلب في الحال الى آلة جديدة للفساد . وليس هذا بغريب فقد تتغلب العادات على الدين نفسه فتفسده وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه

وهذا هو الاصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخي من التلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الامة وتوحشها وبين ارتقاء المرأة وتقدم الامة ومدنيتها . فقد علمنا ان في ابتداء تكون الجمعيات الانسانية كانت حالة المرأة لا تختلف عن حالة الرقيق في شيء وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلا تحت

سلطة ابيها ثم زوجها ثم من بعده اكبر اولادها . وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة فيتصرف فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء ويرثها من بعده ورثته بما عليها من الحقوق المخولة لمالكها . وكان من المباح عند العرب قبل الاسلام ان يقتل الاباء بناتهم وان يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعي ولا عدد محدود . ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل افريقا واميركا المتوحشة . وبعض الامم الاسيوية يعتقد ان المرأة ليس لها روح خالدة وانها لا ينبغي ان تعيش بعد زوجها . ومنهم من يقدمها الى ضيفه اكراماً له كما يقدم له احسن متاع يمتلكه

كل هذا يشاهد في الجمعيات الناشئة التي لم تقم على نظامات عمومية بل كل ما فيها يقوم بروابط العائلة والقبيلة والقوة هي القانون الوحيد الذي تعرفه . وهكذا الحال الآن في البلاد التي تدار بحكومة استبدادية لانها تحكم كذلك بقانون القوة

اما في البلاد التي ارتقت الى درجة عظيمة من التمدن فانا نرى النساء اخذن يرتفعن شيئاً فشيئاً من الانحطاط السابق وصرن يقطعن المسافات التي كانت تبعدهن عن الرجال : هذه

تحبو وتلك تخطو وهذه تمشي وتلك تعدو كل ذلك بحسب حال الجمعية التي تنتسب اليها ودرجة المدنية فيها . فالمرأة الامريكية في اول صف ثم تتلوه الانجليزية وتأتي بعدها الالمانية وتليها الفرنساوية ثم النمساوية ثم التليانية ثم الروسية الخ . كلها نفوس شعرت انها حقيقة بالاستقلال فهي تبحث عن الوسائل لنيله . وانها جديرة بالحرية فهي تسعى للوصول اليها . وانها من نوع الانسان فهي تطالب بكل حق للانسان

والغربي الذي يحب ان ينسب كل شيء حسن الى دينه يعتقد ان المرأة الغربية ترقت لان دينها المسيحي ساعدها على نيل حريتها . ولكن هذا الاعتقاد باطل . فان الدين المسيحي لم يتعرض لوضع نظام يكفل حرية المرأة ولم يبين حقوقها باحكام خاصة أو عامة . ولم يرسم للناس في هذا الموضوع مبادىء يهتدون بها . وقد اقام هذا الدين في كل امة دخل فيها بدون ان يترك اثراً محسوساً في الاخلاق من هذه الجهة بل تشكل نفسه بالشكل الذي افادته اياه اخلاق الامم وعاداتها . ولو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم في مقدمة نساء الارض

سبق الشرع الاسلامي كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة للرجل فاعلن حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الامم وخولها كل حقوق الانسان واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل في جميع الاحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير ان يتوقف تصرفها على اذن ابيها او زوجها . وهذه المزايا التي لم تصل الى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات كلها تشهد على ان من اصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل ان شريعتنا بالغت في الرفق بالمرأة فوضعت عنها احمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك في نفقة المنزل وتربية الاولاد خلافاً لبعض الشرائع الغربية التي سوت بين الرجل والمرأة في الواجبات فقط وميزت الرجل في الحقوق

والميل ان تسوية المرأة بالرجل في الحقوق ظاهر في الشريعة الاسلامية حتى في مسئلة التحلل من عقدة الزواج فقد جعلت لها في ذلك طرقاً جديرة بالاعتبار سيأتي الكلام عنها خلافاً لما يتوهمه الغربيون ويظنه بعض المسلمين

ولم أر الا مسئلة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على

النساء وهى تعدد الزوجات . والسبب في ذلك واضح يتعلق بمسئلة النسب التى لايقوم للزواج حياة بدونها وسيأتي الكلام عليها أيضاً فيما يلي . وبالجملة فليس في احكام الديانة الاسلامية ولا فيما ترمى اليه من مقاصدها ما يمكن ان ينسب اليه انحطاط المرأة المسلمة . بل الامر بالعكس فانها أكسبتها مقاماً رفيعاً فى الهيئة الاجتماعية

لكن وآاسفاه قد تغلبت على هذا الدين الجميل اخلاق سيئة ورثناها عن الامم التي انتشر فيها الاسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من عوائد واوهام ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الامم حداً يصل بالمرأة الى المقام الذى احلتها الشريعة فيه وكان أكبر عامل فى استمرار هذه الاخلاق توالي الحكومات الاستبدادية علينا

تجردت الجمعيات الاسلامية على اختلاف الازمان والاماكن من النظامات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام . بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادي دائماً فكان لسلطانهم واعوانه

سلطة مطلقة فحكموا كيف شاؤا بلا قيد ولا استشارة ولا مراقبة واداروا مصالح الرعية بدون ان يكون لها صوت فيها

نعم كان الحاكم صغيراً او كبيراً ملزماً باتباع العدل واجتناب الظلم لكن من المجرب ان السلطة الغير المحدودة تغرى بسوء الاستعمال اذا لم تجد حداً تقف امامه ورأياً يناقشها وهيئة تراقبها . ولهذا مضت القرون على الامم الاسلامية وهى تحت حكم الاستبداد المطلق واساء حكامها في التصرف وبالغوا في اتباع اهوائهم واللعب بشؤون الرعاية . بل لعبوا بالدين نفسه فى اغلب الأزمنة . ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة الى غالبهم

اذا غلب الاستبداد على أمة لم يقف اثره فى الانفس عند ما هو في نفس الحاكم الأعلى . ولكنه يتصل منه بمن حوله ومنهم الى من دونهم وينفث روحه في كل قوي بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة من التحكم فيه . يسري ذلك فى النفوس رضى الحاكم الاعلى او لم يرض

كان من اثر هذه الحكومات الاستبدادية ان الرجل في قوته اخذ يحتقر المرأة في ضعفها . وقد يكون من اسباب

ذلك ان اول أثر يظهر فى الامـة المحـكومة بالاستبـداد هو فساد الاخلاق

قد يمكن ان يتوهم من اول وهلة ان الشخص الواقع عليه الظلم يحب العدل ويميل الى الشفقة لما يقاسيه من المصائب التي تتوالى عليه . لكن المشاهد يدل على ان الامة المظلومة لا يصلح جوها ولا تنفع ارضها لنمو الفضيلة ولا يربو فيها الا نبات الرذيلة . وكل المصريين الذين عاشوا تحت حكم المستبدين السابقين — وما العهد منهم ببعيد — يعلمون ان شيخ البلد الذي كان يسلب منه عشرة جنيهـات كان يستردها مئة من الاهالي . والعمدة الذي كان يضرب مائة كرباج عنـد عودته الى بلدته ينتقم من مائة فلاح

فمن طبيعة هذه الحالة ان الانسان لا يحترم الا القوة ولا يردع الا بالخوف . ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجـل حقوقها وأخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان وداس بارجله على شخصيتها . عاشت المرأة فى انحطاط شـديد ايًا كان عنوانها فى العائلة زوجةً او أمًا أو بنتًا ليس لهـا شأن ولا اعتبار ولا رأي خاضعة للرجل لانه رجل ولانهـا امرأة . فنى شخصها

obeikandi.com

في شخص الرجل ولم يبق لها من الكون ما يسعها الا ما استتر من زوايا المنازل واختصت بالجهل والتحجب باستار الظلمات واستعملها الرجل متاعاً للذة . يلهو بها متى اراد . ويقذف بها فى الطرق متى شآء . له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله . له الضيآء والفضآء ولها الظلمة والسجن . له الامر والنهى ولها الطاعة والصبر . له كل شيء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذي استولى عليه :

من احتقار الرجل للمرأة ان يملأ بيته بجوار بيض او سود او بزوجات متعددة يهوى الى ايهن شاء منقاداً الى الشهوة مسوقا بباعث الترف وحب استيفاء اللذة غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ولا بما اوجبه عليه من العدل فيما يأتي

من احتقار المرأة ان يطلق الرجل زوجته بلا سبب

من احتقار المرأة ان يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النسآء من ام واخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه

من احتقار المرأة ان يعين لها محافظاً على عرضها مثل اغا أو مقدم أو خادم يراقبها ويصحبها أينما تتوجه

من احتقار المرأة ان يسجنها فى منزل ويفتخر بانها لاتخرج منه الا محمولة على النعش الى القبر

من احتقار المرأة ان يعلن الرجال ان النسآء لسن محلاً للثقة والامانة

من احتقار المرأة ان يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل في أي شيء يتعلق بها : فليس لها رأى في الاعمال ولا فكر فى المشارب ولا ذوق في الفنون ولا قدم في المنافع العامة ولا مقام فى الاعتقادات الدينية وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملىٌ

ولست مبالغاً ان قلت ان ذلك كان حال المرأة فى مصر الى هذه السنين الاخيرة التى خفت فيها نوعاً سلطة الرجل على المرأة تبعاً لتقدم الفكر فى الرجال واعتدال السلطة الحاكمة عليهم ورأينا النساء يخرجن لقضآء حاجاتهن ويترددن على المتنزهات العمومية لاستنشاق الهوآء وترويح النفوس بتسريح النظر فى الكائنات التي عرضها الصانع جل شأنه على نظر كل مخلوق رجلا كان او امرأة . وكثير منهن يذهبن مع رجالهن الى السياحة فى بعض البلاد الاخرى . وكثير من الرجال قد اعطوا لنسائهن مقاماً فى الحياة العائلية

وهذا انما طرأ على بعض الرجال من نشأة الثقة فى نفوس اولئك الرجال بنسائهم واطمأنانهم الى امانتهن: وهو احترام جديد للمرأة

نعم لا ننكر ان هذا التغيير لا يخلو من وجوه انتقاد . لكن سبب الانتقاد فى الحقيقة ليس هو نفس التغيير ولكنه الاحوال التي احتفت به واهمها رسوخ عادة الحجاب فى انفس الجمهور الاعظم ونقص تربية النساء . فلو كملت تربية النساء على مقتضى الدين وقواعد الادب ووقف بالحجاب عند الحد المعروف في اغلب المذاهب الاسلامية سقطت كل تلك الانتقادات وامكن للامة ان تنتفع بجميع افرادها نساء ورجالا